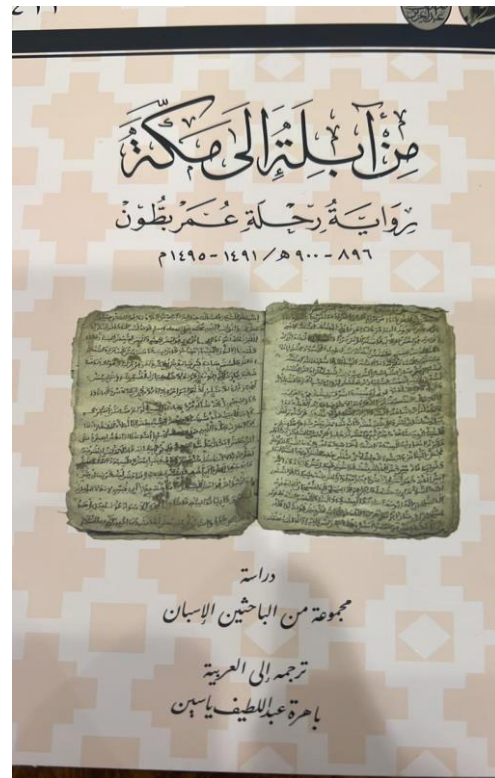
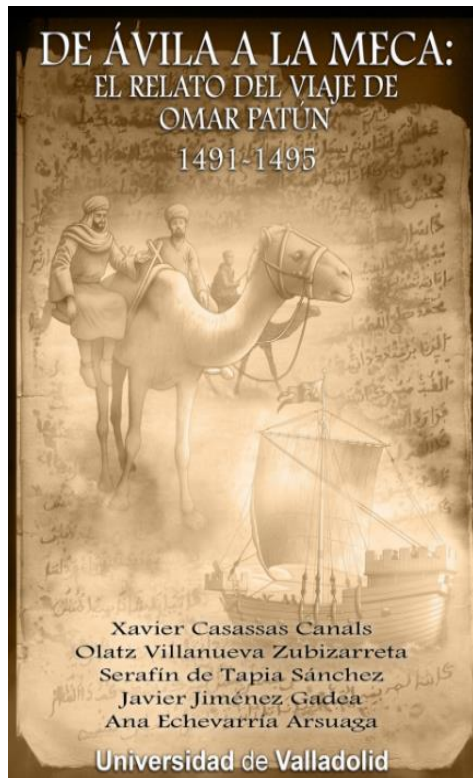


حول ترجمتي العربية: مخطوط رحلة عمر بطون من آبلة إلى مكة (1491-1495)

باهرة عبد اللطيف ياسين
الجامعة الكاثوليكية- إسبانيا



تقديم:

كتاب "من آبلّة إلى مكة: حكاية رحلة عمر بطون"¹ هو أول ترجمة عربية لمخطوطة تروي رحلة حج قام بها مسلمان مدجنان²، هما عمر بطون ورفيقه محمد إل كُرّال اللذان خرجا من مدينة آبلّة بأسبانيا إلى مكة المكرمة في رحلة استغرقت أكثر من أربعة أعوام، من عام 1491م/896هـ حتى عام 1495م/900هـ.

يضم الكتاب نص رحلة القشتالي عمر بطون مترجماً إلى الأسبانية، لأن النصّ الأصلي للمخطوطة مكتوب بالألخميادو (Aljamiado)³ أي الأسبانية المكتوبة بحروف عربية. كما يضم دراسة قام بها فريق من الباحثين الأسبان من جامعة بلد الوليد ويتألف من: شيبّا كزاسس كنّلس، أولانتث بيّانويّا ثوبّيائاريتا، سيرافين دي تانبّياس سانتشيث، خابيير خيمينث غاديا، أنا أتشيبّياريا أرسواغا⁴.

¹ صدرت ترجمتي العربية لكتاب "من آبلّة إلى مكة: حكاية رحلة عمر بطون 1491-1495"، عن مؤسسة داره الملك عبد العزيز في المملكة العربية السعودية ضمن منشوراتها عن رحلات الحج.

De Ávila a la Meca: el relato del viaje de Omar Patón (1491-1495)

وقد تفضل بالمراجعة التاريخية الدكتور صالح السنيدي، وهنا تجدون مقدمة الكتاب.

وقد نشرت أيضاً في العدد الثالث/ عام 2022 من مجلة المورد العراقية -الفصلية المحكمة - بدعوة كريمة من الدكتور الفاضل قصي الحسيني للمشاركة في ملف (الموريسكيون).

² المدجنون هم المسلمون الذين عاشوا في ظل الممالك المسيحية وواصلوا بنحو أو آخر ممارسة شعائرهم الدينية قبل سقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين، عام 1492 على أيدي الملكين الكاثوليكين، إيزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك أراغون. (المترجمة)

³ أي الأعجمية أو العجمية. الأعجمية بالمعنى العام هي أي لغة غير عربية مكتوبة بحروف عربية، أما في تراث الأندلس فهي تشير إلى الأسبانية أو البرتغالية أو المستعربية المرسومة بالحروف العربية التي استخدمها المسلمون المدجنون والموريسكيون في أعقاب إرغامهم على التنصير من قبل محاكم التفتيش. وقد لجأوا إلى هذا الإجراء سعياً للحفاظ على المتبقي من هويتهم العربية والإسلامية بوصفها آخر ما تبقى لهم من لغة القرآن، وإخفاء مضامين مؤلفاتهم (الدينية على وجه الخصوص) عن محاكم التفتيش. (المترجمة)

⁴ Javier Casassas Canals, Olatz Villanueva Zubizarreta, Serafín De Tapia Sánchez, Javier Jiménez Gadea, Ana Echevarría Arsuaga.

وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بالأسبانية عن منشورات جامعة بلد الوليد (بإيادوليد) عام 2017.

لمحة عن المخطوطة وأهميتها:

تروي المخطوطة رحلة الحج التي قام بها كلٌّ من عمر بطون ومحمد دِل كُرّال في خريف عام 1491 من مدينة آبلّة إلى مكّة المكرّمة، بيد أن تعقيدات الرحلة ومشاقها أدت بالقشتاليين إلى الضياع لأكثر من أربعة أعوام عاشا في أثنائها تجارب استثنائية فريدة عبر تنقلهما ما بين تونس والقدس والقاهرة وسيناء والإسكندرية وصنعاء وجدة، مروراً باليونان وتركيا، قبل الوصول في نهاية المطاف إلى مكّة المكرّمة. بهذا المعنى فإن المخطوطة لا تقتصر على رحلة عمر بطون فحسب بل تتضمن توثيقاً لظروف الرحلة ومصاعبها وأخبار بطلها الذي هو شخصية حقيقية من مدينة آبلّة بأسبانيا.

أما بشأن تدوين تفاصيل هذه الرحلة وأصل المخطوطة فمن المحتمل أن يكون الحاجان قد قصّا مغامراتهما إثر عودتهما إلى أسبانيا على بعضٍ من أبناء طائفتها من المسلمين، وقد قام أحد هؤلاء بتدوين رواية عمر بطون بالكتابة الأعجمية. وهذا ما يفسّر لنا مسألة العثور على المخطوطة بين كتب أحد فقهاء بلدة ترويل (Truel) في مدينة كالاندا (Calanda) التابعة لإقليم أراغون، وهي اليوم محفوظة في مكتبة برلمان إقليم أراغون.

تعدّ رحلة عمر بطون ومحمد دِل كُرّال وثيقة استثنائية لأنها تلقي الضوء على أحوال المسلمين المدجنين في إقليم قشتالة. كما أنها تقدّم لنا تسجيلاً مهماً لمشاهداتهما في ديار المسلمين بوصفهما قادمين من قشتالة في ظرف تاريخي دقيق، فقد غادرا عام 1491، أي قبل سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين، وحين عودتهما لقيّا الأحوال قد تغيرت تماماً مع بدء حملات التنصير القسري التي توجت بعملية الطرد الجماعي النهائي للموريسكيين من مملكة أسبانيا.

ولهذه المخطوطة أهمية مضافة تتمثل في كونها توثق لأول رحلة حجّ معروفة إلى مكة المكرمة قام بها هذان المسلمان المدجنان من مدينة آبلّة في أواخر القرن الخامس عشر. وهي تحفل بسرد تفاصيل رحلتها الطويلة وما لقياه من صعاب ومخاطر وتسجيل انطباعات وشروحات ذات طبيعة متنوعة، تاريخية وجغرافية واجتماعية واثربولوجية للبلدان والمجتمعات التي مرّا بها وهما يجتازان أراضي حوض البحر الأبيض المتوسط انطلاقاً من الغرب المسيحي حتى الشرق المسلم.

تناولت الدراسة في الجزء الأول من الكتاب أوضاع المسلمين القشتاليين المدجنين في أواخر العصور الوسطى في آبلّة ومنطقة حوض نهر دويره، على وجه التحديد. وقد تطرقت إلى رحلات الحجّ من شبه الجزيرة الإيبيرية إلى مكة المكرمة في القرن الخامس عشر، فضلاً عن سرد ظروف الرحلة الصعبة، والمغزى الروحي للحجّ بالنسبة للمسلمين في إسبانيا. كما تقصّت الدراسة سيرة حياة الحاجين، عمر بطون ورفيقه محمد دِلْ كَرّال، وبحثت في ظروف كتابة مخطوطة الرحلة وخصائصها اللغوية، كما أشارت إلى بقية المخطوطات التي خلفها المسلمون المدجنون في إقليمي قشتالة وأراغون .

أما الجزء الثاني من الكتاب فهو نقل حرفي لمخطوطة الرحلة المكتوبة بالأخامياو إلى اللغة الأسبانية المعاصرة التي نقدم هنا ترجمتها إلى اللغة العربية، مع بعض الملحوظات التوضيحية، ليختتم الكتاب بسرد ببلوغرافي مع نسخة مصورة للمخطوطة.

تألف فريق الأساتذة الباحثين من جامعة بلد الوليد من متخصصين في مختلف الأقسام العلمية، بالتعاون مع المستعرب شيبيا كزاسس كَنَلُس الأستاذ المتخصص في الدراسات العربية-الإسلامية والمخطوطات الموريسكية والمدجنّة في جامعة سالزبورغ. وجميع المؤلفين هم من الباحثين المتخصصين في دراسة تاريخ المسلمين

في إقليم قشتالة والبحث في أخبار المدجنين والموريسكيين⁵ هناك، لاسيما في مدينة آبلّة التي ضمت أكبر تجمع معروف للمسلمين بهذا الإقليم.

كما أنّ فريق البحث العلمي هذا يعكف منذ سنوات على تقصي آثار الوجود الإسلامي، ويضع الدراسات عن المسلمين وعن الثقافة الإسلامية من مختلف جوانبها المتعددة. وقد قادت جهودهم البحثية الدؤوبة إلى الاعتراف التاريخي بواحدة من أهمّ الجماعات الإسلامية في خواتم العصور الوسطى الأسبانية وأكبرها على الإطلاق، ونعني بها تلك التي عاشت في مدينة آبلّة. وهذا الكتاب هو حصيلة جهودهم في توثيق أول رحلة حجّ معروفة إلى مكّة قام بها مسلمان قشتاليّان في أواخر القرن الخامس عشر.

لا يفوتنا هنا أن نشير إلى حدث مهم وقع عام 1999 تمثل بعثور حملات البحث والتنقيب الأثرية في مدينة (آبيلّا) الحالية على مقبرة للمسلمين ضمت أكثر من 3000 قبر إسلامي، الأمر الذي كشف عن أكبر مقبرة إسلامية في أوروبا قاطبة وليس في أسبانيا فحسب.

ولا بد لنا من التنبيه إلى الأهمية المتعظمة التي باتت تحتلها على المستوى البحثي في أسبانيا مأساة الموريسكيين المتمثلة بإرغامهم على التنصير وطرد أكثر من ثلاثمائة ألف مسلم -وفقاً لأقل التقديرات- ممن قسروا على الترحيل تدريجياً من شتى مناطق بلنسية وقشتالة وأراغون ومرسية وغرناطة، ما بين الأعوام 1609 و 1613، تبعاً لمؤرخين معروفين ومنهم: الأسباني أنطونيو دومينغيث أورتيث والفرنسي برنار فنسنت في مؤلفهما المرجعي "تاريخ المورسكيين: حياة ومأساة أقلية".

وهكذا ازداد عدد البحوث والمؤلفات والندوات التي تتناول تأثير طرد المسلمين على المجتمع الأسباني الذي كان تعددياً بفضل الحضارة العربية الإسلامية وبات مسيحياً متعصباً مغلقاً على نفسه، بعد تنامي سلطة الكنيسة التي بلغت ذروتها مع محكمة التفتيش

⁵ هم المسلمون الذين تنصروا قسراً أو طواعية في أعقاب سقوط غرناطة عام 1492، وعانوا الظلم والتكيد على يد محكمة التفتيش الأسبانية حتى طردوا بأمر ملكي من أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية عام 1609، وتشتتوا في المنافي. وقد لقبوا بالموريسكيين ومفردها موريسكي (Morisco).

وقيامها بطرد المسلمين -واليهود أيضاً- وحرق تراثهم ومؤلفاتهم وتجريدهم من ممتلكاتهم وأحياناً إزهاق أرواحهم أيضاً.

ويتجلى هذا الاهتمام من خلال العناية بالآثار العربية الإسلامية والمخطوطات الموريسكية والمدجنية، بعد أن شرع كثير من الجامعات والمراكز البحثية الأسبانية المهمة بهذا الشأن بجمع المخطوطات وتقصي أخبارها، داخل أسبانيا وخارجها، والعودة إلى ما حفظ منها في المكتبات الوطنية والعالمية ومراكز البحوث المتخصصة، لدراستها انطلاقاً من موقف مغاير، بوصف الموريسكيين مواطنين أسبان ومسلمين أندلسيين معاً.

حول المخطوطات المكتوبة بالألخميادو:

العناية بالمخطوطات الموريسكية المدجنية المكتوبة بالألخميادو ليست بالأمر المستجد، إذ يعود تاريخها إلى عام 1878، حين قام إدواردو سابيدرا Eduardo Saavedra⁶ بوضع أول كشف ضمّ أهم ما عثر عليه آنذاك مما له صلة بالمخطوطات والكتابات الأعجمية أو العجمية حتى ذلك الحين، وقدمه بمناسبة انضمامه إلى الأكاديمية الملكية الأسبانية. وزاد عليه في العام نفسه بنشر "فهرس عام للأدب المكتوب بالألخاميادو"، حدّد فيه المخطوطات وأمكنة حفظها سواء في المكتبات العامة أم المكتبات الشخصية المعروفة آنذاك. وبلغ العدد الذي ثبته (135) مخطوطة، بعد أن واصل بحثه ليضم في قائمته مخطوطات أخرى غفل عنها أو تم اكتشافها في مرحلة لاحقة. وفي عام 1912 زاد عليها المستعربان خوليان ريبييرا وأسين بلانثيوس سبع وسبعين مخطوطة.

أما الرقم النهائي لمخطوطات الألخاميادو الموريسكية والمدجنية فيصعب حصره حالياً بعد أن نما في العقود الأخيرة، وكذلك لانتشار هذه المخطوطات وتوزعها على عدد من المكتبات في مدن أسبانيا (مدريد، الإسكوريال، برشلونة، طليطلة، ثاراغوثا، أراغون، تاراغونا، يّيدا...) وكذلك خارج أسبانيا (باريس، بروفانس، لندن، كمبردج،

⁶ مستعرب أسباني، مهندس معماري وعالم آثار ومؤرخ (1829-1912).

أوكسفورد، أبسالأ، بولونيا، روما، الفاتيكان، فلورنسة، بيرن، مالطة، سدنأ، المكسيك، الجزائر، قطر...).

ولو تطرقنا إلى الأسباب الأولى التي دعت إلى الاهتمام بالأدب الموريسكي بعامة، والمكتوب منه بالألخميادو بخاصة، فهي متعددة، لكنها في الماضي كانت تنطلق من منظور تقليدي واحد، هو دراسة تاريخ أسبانيا وتأثير طرد المورييسكيين وتداعياته على واقعها، بينما أصبح الطرح الحديث الآن يتناول موضوعة المورييسكيين وما حل بهم من منظور آخر يتفاعل مع محنة الخاسر، وليس تدويناً أفقياً استرجاعياً لما خطّه الظافر. فقد باتت دراسة المورييسكيين تُعنى بهم بوصفهم جزءاً من المجتمع الأسباني، نكّل به وشُرّد وحُرم من حقوقه، بعد قرابة ثمانية قرون من الوجود العربي الإسلامي.

من هنا أخذ يتزايد الاهتمام بموضوع المورييسكيين والمدجنين وتراثهم، وشرع الباحثون بفتح صفحات الماضي بحرية وموضوعية، بنحو خاص في أعقاب عهد الديكتاتور فرانكو وبداية عهد الديمقراطية عام 1975 وإرساء الحريات وواقع التنوع الديني والثقافي، حتى أن أسبانيا في عام 2009 استذكرت من خلال جامعاتها ومؤسساتها ومراكزها البحثية المتخصصة الذكرى المئوية الرابعة لمأساة طرد المورييسكيين، وكرست لها المؤتمرات والحلقات الدراسية والمواد والبرامج الإعلامية في سابقة فريدة من نوعها.

وثمة من بين المؤرخين من يتحدث عن حالة القلق التي أصابت أسبانيا، وانتقلت إلى أدبها منذ القرن السادس عشر حتى الوقت الحاضر⁷. وهناك من المستعربين والكتاب والمتقفين من يشير إلى "عقدة المورييسكين" في الذاكرة الأسبانية وعن الجرح الذي خلّفته في المسار التاريخي، وعن ارتباط مسألة المورييسكيين بالقضايا الكبرى السياسية والأيدولوجية التاريخية في أسبانيا، وعن "الهوية الأسبانية" والتعامل من منظور أوسع مع مكوناتها التي باتت تشمل الأندلس وتاريخ المسلمين فيه.

⁷ كتابات المفكر أمبريكو كاسترو المبكرة تناولت هذا الموضوع منذ أواسط القرن الماضي، وصولاً إلى كتاب "أسبانيا بشكل جلي: المنطق التاريخي للبلاد الأسبانية" للفيلسوف الأسباني خوليان مارياس، ترجمة الدكتور علي المنوفي، 2014.

كل هذا حفّز المتخصصين على مستوى الدراسات الأكاديمية والبحوث العلمية على تحقيق ونشر المخطوطات التي عُثِرَ عليها مصادفة، أو تلك المحفوظة في المكتبات الوطنية ومكتبة الاسكوريال على وجه الخصوص، والتنافس على الكشف عنها وإعادة قراءة تاريخ المسلمين الموريسكيين والمدجنين من خلالها. وتركز البحوث الأكاديمية الحالية حول تراث الموريسكيين والمدجنين على دراسة شتى جوانب حياتهم وآثارهم من خلال السجلات المدنية والضريبية وملفات الأديرة والكنائس والبلديات، وتتبعها في المنافي التي توزعوا عليها في أعقاب عملية الطرد.⁸

وما زال أمام الباحثين والدارسين العرب فرصة كبيرة للإسهام في الكشف عن كنوز هذه المخطوطات القيمة وتحقيقها. وهنا لا بد من تظافر الجهود وتعزيز العمل المؤسسي الثقافي والأكاديمي، الأسباني-العربي المشترك، لإنجاز مثل هذه المهمة العظيمة.

حول لغة المخطوط وصعوبات الترجمة:

كما أسلفنا من قبل فإن مخطوطة رحلة عمر بطون المحفوظة في مكتبة برلمان إقليم أراغون للحكم الذاتي في إسبانيا مكتوبة بالألخميادو، والكتاب الحالي هو ترجمة عربية لنص رحلة عمر بطون من الأسبانية، وليس دراسة نقدية تاريخية أو لغوية لها. وقد بذلنا جهداً كبيراً في نقل المخطوطة إلى العربية بترجمة حرفية متماسكة، على الرغم من أن نص المخطوطة يشكو ضياع كلمات وسطور كثيرة، وأحياناً صفحات كاملة بسبب التلف الذي أصابها بفعل الرطوبة والقدم.

وقد سعينا قدر الإمكان للحفاظ على أسلوب مدوّن الرحلة المجهول، على الرغم من عدم وضوح التعبير وقصوره الذي نلمسه أحياناً، المتمثل بخلط الصياغات

⁸ يمكن مراجعة موقع جامعة أوبييدو الخاص بالمخطوطات الموريسكية والمدجنية المكتوبة بالألخميادو:

<http://www.arabicaetromanica.com/>

والأساليب اللغوية الأسبانية والعربية معاً، أو بتصريف الأفعال العربية على غرار الأفعال الأسبانية، فضلاً عن عدم الدقة في السرد والوقوع في بعض الأخطاء التاريخية. ولا يفوتنا التذكير هنا بأن هذه هي بعض من سمات الأدب المكتوب بالألخميادو التي اضطر إليها المسلمون في أسبانيا، بسبب القمع والملاحقة التي تعرضوا لها في ذلك العصر.

مع ذلك لم نسعَ بأية حال من الأحوال إلى التصويب إلا ما ندر، لأن تصويبها أمر يخرج عن هدف العمل الذي نحن بصدد، ونعني به "ترجمة" المخطوط.

وإن كان لنا أن نقول كلمة أخيرة، فهي الاقرار بصعوبة ترجمة المخطوطة إلى العربية للأسباب التي أتينا على ذكرها، وقد اجتهدنا -المترجمة والمراجع- في إضاءة بعض المصطلحات أو الإشارات التاريخية بإضافة الكثير من الهوامش للقارئ غير المتخصص في تاريخ الموريسكيين والمدجنين.

بيانات الكتاب:

العنوان:

"من آبلّة إلى مكة"

حكاية رحلة عمر بطون

(1491-1495)

De Ávila a La Meca

El relato del viaje de Omar Patún

(1491-1495)

تأليف مجموعة من الباحثين الأسبان:

شَبِيَا كَزَاسَس كَنْلَس/ أولانث بِيَانُويَا ثُونِيَاثَارِيَتَا/ سيرافين دي تَابِيَاَس سَانْتَشِيث/ خَابِيِير
خِيْمِيْنِث غَادِيَا/ أَنَا أَتَشْيَارِيَا أَرْسُوَاغَا

Javier Casassas Canals, Olatz Villanueva Zubizarreta, Serafín De Tapia
Sánchez, Javier Jiménez Gadea, Ana Echevarría Arsuaga

ترجمة عن الأسبانية: باهرة عبد اللطيف ياسين

مراجعة: أ. د. صالح السنيدي

- النسخة الأسبانية صادرة عن منشورات جامعة (بَايَادُولِيْد) عام 2017 - طبعة
أولى.

فهرس الكتاب

مقدمة المترجمة

مقدمة المؤلفين

أولاً - المسلمون القشتاليون في أواخر العصور الوسطى:

- المجتمعات الإسلامية في حوض نهر دويره

- الجماعة المسلمة في آبله

- عمر بطون ومحمد دِلْ كُرَّال: سيرة ذاتية

ثانياً - رحلات الحج إلى مكة من شبه الجزيرة الإيبيرية:

- قرار الحج

- ظروف الرحلة وجغرافيتها

- مكة بوصفها وجهة للحجّ في القرن الخامس عشر

- مغزى الحجّ الروحي للمسلمين المدجنين

ثالثاً - مخطوط الرحلة:

- التّاج المدوّن للمجتمعات الإسلاميّة في قشتالة وأراغون

- المخطوطات الإسلاميّة التي عثر عليها

- خصائص رحلة عمر بطون اللغوية والمادية

رابعاً - حكاية الرحلة "النّص"

خامساً - السرد الزمني للرحلة

سادساً - ملحوظة توضيحية

سابعاً - المصادر والمراجع حسب الفصول

ثامناً - صور مخطوط رحلة عمر بطون



